مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب المجلد 14 العدد 2، 2017، ص ص 459- 485

دلالة صيغة "تفعّل" في القرآن الكريم

إبراهيم خليل أبو غالية *

تاريخ الاستلام 2016/4/7 تاريخ القبول 2016/7/28

ملخص

يدرس هذا البحث دلالة صيغة تفعّل، دراسة صرفية دلالية مبيناً أبرز معاني تفعّل عند النحاة، ناقداً لبعض الدلالات التي نسبت لها وليست منها، تم بحث هذه الصيغة بحثاً تطبيقياً من خلال عشرة أفعال في القرآن الكريم، وقد تعمّد الباحث دراسة مُثل اختلفت فيها كلمة العلماء، فقام الباحث بإيراد المعاني التي فسرت بها هذه المثل من أقوال النحاة واللغويين والمفسرين، ثم دراستها مستعيناً بالسياق، والمغزى الذي وردت فيه، والمناسبات والقرائن، ثم ترجيح ما يراه أقرب دلالة، وقد اتضح من خلال البحث أن أبرز معاني هذا الفعل، وأكثرها وروداً وتعلقاً بصيغة تفعّل هو التكلف، وعند النظر والتأمّل في معنى هذه الصيغة يتبيّن أنها لا تكاد تخرج عن معنى التكلف. وأوضحت هذه الدراسة الدّقة في استعمال هذه الصيغة، والدلالات والمناحي النفسية والجمالية التي تضيفها على المعنى. والمثل المختارة في هذا البحث: تبتّل، وتزيّل، وتفسّح وتربّص، وتبرّأ، وتخلّى، وتكبّر، وترقّب، وتنفّس، وتشقّق.

مقدمة البحث:

تناول هذا البحث أهمّ المعاني التي فسرت بها صيغة تفعّل، ثم بحث عشرة أفعال منها من خلال ورودها في القرآن الكريم، وبيّن أنّ أكثر هذه المعاني وروداً على هذه الصيغة هو التّكلّف.

أهمية البحث:

1- يخطو هذا البحث خطوة إلى الأمام في سبر صيغة تفعّل، وعدم الوقوف عند المعاني التي ذكرها النحاة في كتبهم.
2- تبين هذه الدراسة معاني ودلالات، وآثاراً نفسية تترتّب على صيغة تفعّل.
3- تنفي هذه الدراسة الترادف بين الصيغ الصرفية، إذ الأصل أنّ كلّ صيغة تحمل دلالات محدّدة.

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2017.

* دائرة اللغة العربية، جامعة القدس، القدس، فلسطين.

الدراسات السابقة:

1- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، محمد عبد الخالق عضيمة: جمع فيه مؤلفه المعاني التي ذكرها العلماء في معاني زيادة الأفعال في الجزء الرابع من كتابه، ولم يزد على إيراد الأقوال.

2- دور السياق في تحديد دلالات صيغة تفعّل في القرآن الكريم، دراسة إحصائية تطبيقية، وهي رسالة ماجستير مقدمة إلى قسم اللغة العربية وآدابها، تخصص الدراسات اللغوية (فقه لغة)، إعداد الطالبة: إيمان بنت معتوق بن عويتق الحربي، جامعة أمّ القرى، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، السعودية بتاريخ: 1430هـ - 2009م، ولم تخرج هذه الرسالة عن جمع أقوال النحاة واللغويين والمفسرين، ثم إجراء المقارنات بينها.

منهج البحث:

قمت في هذه المبحث بتتبع معاني صيغة تفعّل كما وردت عند النحاة، ثم درست هذه المعاني دراسة نقدية، واستبعدت من هذه المعاني ما رأيته غير دقيق في تحديد المعنى. ثم تناولت عشرة أمثلة مما اشتد حولها الخلاف، ثم تتبعت معانيها في أمّات المعاجم وكتب النحو والتفسير، ثم اجتهدت في تبيين معناها معتمداً على الدلالة اللغوية والسياق والمقارنة بين مقاماتها المختلفة.

وقد قسم البحث إلى مبحثين، الأول: معاني تفعّل، عند النّحاة، وتناولت فيه المعاني التي اشتهرت في تفعّل، وأثبتّ منها ما رأيته صواباً، واستبعدت ما رأيته مجانياً للصواب. والثاني: دلالة تفعّل في القرآن الكريم، وتناولت عشرة أمثلة اختلف فيها العلماء ونسبوا معناها إلى الأصل أو معنى أفعل أو استفعل أو غير ذلك، واجتهدت في تبيين معناها.

المبحث الأول: معاني صيغة "تَفَعَّل" كما وردت عند النحاة، دراسة نقدية:

1- التكلف: "وهو حمل النفس على أمر فيه مشقة"[1]، وقد أشار سيبويه إلى هذا المعنى بقوله: "وإذا أراد الرجل أن يدخل نفسه في أمر حتى يضاف إليه ويكون أهله فإنك تقول: تَفَعَّل، وذلك تشجّع، وتبصّر، وتحلّم، وتَجَلّد، وتمرّأ، أي صار ذا مروءة، وقال حاتم الطائيّ:

تَحَلَّم عن الأَدنَين واستبق وُدّهم

ولن تستطيع الحلم حَتّى تَحَلَّما"[2]

وقد ذكرت عبارة سيبويه في تعريف التكلف كما هي في كتب من جاءوا بعده، كابن قتيبة في أدب الكاتب[3]، وابن السراج في الأصول[4]. ويفهم منها حمل النفس على ما فيه مشقة؛ لأن الإنسان إذا أراد أن يدخل نفسه في أمر، أو في صفة، أو حالة ليست فيه، فلا بُدّ من أن يحمل نفسه على ذلك، ويدفعها إلى ذلك دفعاً حتى تدخل في هذا الأمر، وهذا هو معنى التكلف.

ومنه، أي التكلف: التغزّل، وتغزّل: تكلف الغزل[5]، والتشبّع: أن يرى أنه شبعان وليس كذلك، لأنه من صيغ التكلف، والتشبّع التكثر، وهو التزيّن بأكثر مما عنده، يتكثر بذلك ويتزين بالباطل، وهو مجاز، ومنه الحديث: المتشبّع بما لا يملك كلابس ثوبي زور، أي: المتكثر بأكثر مما عنده يتجمّل بذلك، كالذي يرى أنه شبعان وليس كذلك، والتشبّع: الأكل إثر الأكل، يقال تروّوا وتشبعوا[6]، وتمرّأ: تكلف المروءة[7]، وتجلّد: تكلف الجلد[8]، والتصنّع: تكلف الصلاح وحسن السمت[9].

2- العمل المتكرر في مهلة، وهو ما يطلق عليه التدرّج، وقد أورد سيبويه ما هو قريب من هذا المعنى فقال: وأمّا يتسمّع ويتحفّظ فهو يتبصّر، وهذه الأشياء نحو يتجرّع، ويتفوّق، لأنها في مهلة، ومثل ذلك تخيّره. وأما التعمّج والتعمّق فنحو من هذا، والتدخل مثله، لأنه عمل بعد عمل في مهلة[10].

وبعض أفراد التدرج يمكن ردّها إلى معنى التكلف، إذا كان فيها معاندة للنفس وإكراه لها على الفعل، ودفعها إليه دفعاً، فمثلاً تجرّع إذا كان المقصود منه تناول الشراب جرعة تلو جرعة؛ لأن هذا ما يقتضيه الحال أو الطبيعة كان من هذا الباب، أما إذا كان المقصود أن يقسر نفسه على شربه، أو يلزمه غيره بذلك، ويشرب وهو كاره له، وتعافه نفسه، فهو من باب التكلف.

3- التجنّب: والمراد به الدّلالة على أنّ الفاعل قد ترك أصل الفعل، وذلك مثل: تأثّم، وتحوّب، وتحرّج، وتَهَجُّد، إذا تجنّب الإثم والحوب والحرج والهجود[11]. وفي الحقيقة إن التجنّب فيه معنى التكلف، إذ لا يمكن ترك هذه الأفعال، وتجافيها دون مشقة في النفس، ولجم لنزواتها، وتغلب على شهواتها؛ لأن النفس بطبيعتها تميل إلى هذه الأفعال.

4- الاتخاذ: وهو "اتخاذك الشيء أصله"[12]، أي ما يشتق منه الفعل نحو توسّد التراب، أي اتخذه وِسادَهُ، وتبنّى الصبيُّ، اتخذه ابناً، وكل منهما مشتق من الوسادة ومن الابن.

ويلحظ أن أكثر صور هذه الصيغة مشتق من الجوامد، "فالوسادة هي الأصل الذي اشتق منه توسّد، والابن هو الأصل المشتق منه تبنّى"[13].

وكتب النحو والصرف تحتوي على صور محدودة تتكرر في غالب هذه الكتب، وعند النظر في المعاجم وكتب اللغة يظهر أمامنا عدد هائل لهذا الاستعمال، ومنه: تَبَوَّبْتُ بَوّاباً، أي: اتخذت بواباً[14]، وتخبّبت إذا اتخذت خباءً،[15] وتخدّمت: اتخذت خادماً[16]، وتأخّيت: اتخذت أخاً[17]، وتأمّيت: اتخذت أمة، قال رؤبة: يرضى بالتعبير والتآمي[18]. وتحلّت: اتخذت حلياً[19]، وتموّل الرجل: اتخذ مالاً[20]، ومنها تأبّل وتغنّم، قال أبو زيد: سمعت ردّاداً رجلاً من بني كلاب يقول:

تأبّل فلان إبلاً، وتغنّم غنماً، إذا اتخذ إبلاً وغنماً واقتناهما[21]. وقد تخوّل خالاً، وتعمَّم عَمّاً، إذ اتخذ عمّاً وخالاً[22]. وتجنّد: اتخذ جنداً[23]، وتحفّر السيل، اتخذ حفراً في السيل[24].

وَتَلحّف: اتخذ لنفسه لحافاً[25]، وتحصّن العدو: دخل الحصن واحتمى به، أو اتخذ الحصن سكناً[26]. وتخلّى خلية اتخذ لنفسه[27]، وتشكّى: اتخذ الشكوه[28].

5- ومما أورده النحاة في كتبهم في معنى تفعّل الطلبُ. ولي عليه الملحوظات الآتية:

أ. لم أعثر على معنى الطلب في صيغة تفعّل عند المتقدمين كسيبويه وابن قتيبة، وابن السراج والمبرد، ولا حتى عند ابن مالك، ووجدته عند بعض المتأخرين كأبي حيّان في ارتشاف الضرب[29]، وقامت بتكريره أغلب المراجع الصّرفيّة الحديثة.

ب. الذي يظهر أنّ هذا المعنى ليس وارداً على هذه الصيغة، والذين قالوا به رأوا أنّه من لوازم بعض الأفعال الدالة بأصل معناها على الطلب.

ج. بعض الأمثلة لا علاقة لها ألبتّة بالطلب لكن حملت عليه حملاً، مثل: تكبّر، قالوا إنها بمعنى استكبر، ويظهر فيها معنى التكلف واضحاً في الاستعمال القرآني: "الذين يتكبرون في الأرض بغير الحقّ"[30]، أي الذين يتكلفون إبراز الكبر والعظمة، وهو ما ليس فيهم.

وهذه أفعال على سبيل التمثيل لا الحصر مما استشهد بها على معنى الطلب وهي ليست من الطلب في شيء، والأفعال في هذا الباب كثيرة؛ فالتنسّم: طلب النسيم واستنشاقه[31]، ولا يخفى أن التنسّم هو التكلف في اجتذاب النسيم وإدخاله إلى الجوف؛ لما يحس الإنسان بسبب ذلك من الاسترواح وانشراح النفس، لكنّهم لحظوا النتيجة التي تترتب على التنسّم، وهي طلب النسيم وإدخاله إلى الجوف، وقالوا هذا هو الغرض، وهذا غير صحيح؛ لأن المعنى لا يفسر بما يؤول إليه في النهاية، بل يفسر بالمعنى الذي يصاحب الفعل، وبهذه الطريقة فسروا كثيراً من الأمثلة بمعنى الطلب. قالوا: توسّم: طلب الكلأ الوسمي[32]، وتفهّم: طلب الفهم[33]، وتحرّى: طلب ما هو أحرى[34]، وتكسّب: طلب الكسب[35]، وتَلَمّس الشيء: طلبه، وتقرّب إلى الله بشيء: طلب القربى عند الله[36].

وكثير مما قيل في معنى تفعّل، يمكن رجعها إلى معنى التكلّف في الفعل، فقد قيل إنّ تفعّل تأتي بمعنى الصيرورة، وذُكر في ذلك من الأمثلة نحو: تأيمّت المرأة: صارت أيّماً، وتكبّد اللبن: إذا صار كالكبد، وتجبّن: إذا صار كالجبن، وتحجّر الطين: إذا صار كالحجر، وتسكّر الشراب إذا صار كالسكر[37].

والتكلف في حركة هذه الأفعال واضح؛ لأنّ فيها انتقالاً من طور إلى طور، وفيها ما يصاحب هذا الانتقال من شدّة وجهد في الانتقال من حال إلى أخرى، فانتقال المرأة من حال الزوجية وما فيها من أنس ووئام وسكن إلى حال الوحدة وما فيها من شدّة وعناء ووحشة، وكذلك الانتقال من

طور الحليب إلى اللبن المتماسك كالكبد، ومن طور الحليب إلى الجبن، ومن طور الطين اللين إلى الحجر القاسي، وكذلك انتقال الشراب من حال الميوعة والسيولة إلى حال التبلور والتجمع، كحبّات السكر، كل ذلك التحوّل لا يجري دون شدّة وعناء ومعالجة للمادة المتحولة.

وقد قيل أيضاً إنّ تفعّل تأتي لموافقة المجرد، نحو: تعدّى الشيء وعداه، وتبَيَّن إذا أبان، وتبسّم بمعنى بسم، ولبث وتلبّث، وعجب وتعجّب[38].

وبنظرة متأملة في هذه الأفعال يظهر أن معنى التكلف أبين وأظهر فيها من غيره. وسيتضح ذلك أكثر من خلال دراسة بعض الصيغ الواردة في القرآن في هذا المبحث إن شاء الله.

والمعاني التي أوردها العلماء لمعنى تفعّل اجتهادية ظنيّة قد تقترب من المعنى أحياناً، وقد تبتعد عنه أحياناً أخرى. وقد يحصل تداخل بين هذه المعاني للفعل الواحد، فمثلاً هناك تداخل بين الطلب والتدرج والتكلف والتظاهر؛ لأن التدرّج في القيام بالفعل يكون فيه غالباً دفع للنفس وتكليف لها بما هو مضادّ لإرادتها ووجهتها؛ فقولنا تَحَفَّظَ فلان، هو بمعنى ألزم نفسه الحفظ بأن بدأ يتدرج في الحفظ شيئاً فشيئاً، وكذلك هو طالب للحفظ.

وكذلك الفعل تشبّع فهو بمعنى طلب هذه الصفة وسعى إليها، وكلّف نفسه إياها، وهي ليست فيه، وهو أصبح يتظاهر بها بخلاف حقيقته.

المبحث الثاني: دلالة التكلف في صيغة تفعّل.

الفعل تبتّل:

جاء في اللسان: "تبتّل، البتل القطع، بَتَله يَبْتِله ويَبْتُلُه بَتْلاً، وبتّله فانبتل، وتَبَتَّل: أبانه من غيره"[39].

وجاء في القاموس المحيط: "بَتَلَه يَبْتُله ويَبْتِله بَتْلاً: قطعه، كبَتّله تبتيلاً فانبتل الشيء، وتَبَتَّل: انقطع"[40].

"والتَبَتُّلُ: إخلاص النية لله تعالى والانقطاع إليه"[41].

وجاء في معاني القرآن: "ويقال للعابد إذا ترك كُلَّ شيء، وأَقْبل على العبادة: قد تَبَتَّل، أي: قطع كلّ شيء إلا أمر الله وطاعته"[42].

وجاء في التحرير والتنوير: "والتبتُّل، شدّة البَتل، وهو مصدر تَبَتّل القاصر الذي هو مطاوع بَتَّله فتَبَتَّل، وهو هنا للمطاوعة المجازية يقصد من صيغتها المبالغة في حصول الفعل حتى كأنّه فعله غيره به فطاوعه"[43].

وقد ورد الفعل تَبَتَّل في القرآن في موضع واحد في قوله تعالى: "واذكر اسم ربك وتبتّل إليه تبتيلا"[44].

والذي يراه الباحث أنّ معنى الانقطاع مفهوم من معنى الأصل، وهو البَتل، ولكن بناء الفعل بتل على صيغة تفعّل أفاد معنى التكلف في إيقاع هذا الفعل وإنفاذه؛ لأنّ الانقطاع إليه سبحانه، والخلوص من كل ما يشغل عن وجهه الكريم ليس بالأمر الهيّن، ولا يقوم به إلا من جاهد نفسه وألزمها ما يشق عليها، وأرغمها ما يعاكس هواها، ويناقض ما ألفته من الدعة والراحة والركون إلى ملاذّ الدنيا؛ لذا كان لا بد من حملها على ما تكره، ودفعها في غير إرادتها، وهذا يتطلب من صاحبها ركوب المشاقّ، وتحمُّل العنت، وقسر النفس على الانقطاع إليه وحده سبحانه، وهذا هو معنى التكلف.

الفعل تَزَيَّل:

جاء في اللسان: "وتَزَيَّل القوم تَزَيُّلا، وتزييلاً: تفرقوا"[45].

وجاء في تاج العروس: "وتزيّلوا: تَزَيُّلا، وتزييلاً.... وأنشد المتلمس:

أحار إنّا لو تُساط دماؤنا

تَزيَّلن حتى ما يمس دمٌ دماً.

وقوله تعالى: لو تَزَيَّلوا لعذبنا الذين كفروا، يقول: لو تميّزوا[46].

وجاء في التحرير والتنوير: "والتزيُّل مطاوع زَيّله إذا أبعده عن مكان، وزَيّلهم، أي: أبعدهم عن بعض، أي فرقهم"[47].

يتبين مما سبق أن الفعل "تَزَيَّل" يفيد المباينة والمفارقة المكانية، وهذا هو معنى الأصل؛ لأنّ الأصل مأخوذ من زال يزيل، جاء في تاج العروس: "وزلته أزيله زَيلا فلم يَنْزَل: أي مزته فلم يَنمز، يقال: زِلْ ضأنك من مَعْزِك، أي مِزْه وأَبِنْ ذا مِن ذا"[48].

وقد ورد هذا الفعل في القرآن في موضع واحد وهو قوله تعالى: "ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم... لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً"[49].

عند تحول الأصل بالزيادة إلى الفعل تَزَيَّل أفاد معنى جديداً، ويرى صاحب التحرير والتنوير أن هذا المعنى الجديد هو المطاوعة، ومعنى المطاوعة تُفَسّر به صيغة تفعّل كثيراً.

ولا أرى أنّ معنى المطاوعة وارد على هذه الصيغة، ولا أرى له موجباً، وفائدة تترتب عليه.

والأولى الإبقاء على المعنى الأصلي، وهو التكلف، وهو واضح؛ إذ الآية تتحدث عن التباس المؤمنين بالكافرين واختلاطهم بهم فيصعب تمييز طائفة المؤمنين. وهؤلاء المؤمنون كانوا يخفون إيمانهم خوفاً من قريش؛ لذا قال: لم تعلموهم. وتمييز هؤلاء المؤمنين وتحديد ذواتهم لا يحصل إلا بعد عناء وجهد ممن يروم تمييزهم؛ لإخفائهم إيمانهم، وكذلك هم لا يظهرون إيمانهم بل يرغبون في أن يبقوا مندمجين في الناس حتى لا تعرفهم قريش، ويقاومون كلّ من يريد تمييزهم، ويدفعون عن نفوسهم تهمة الإيمان، ويجهدون ويبالغون في إخفاء حقيقة إيمانهم، لذا كان الفعل"تزيّل" أدلّ على المعنى، لأن هذا التمييز بحاجة إلى بحث وتنقيب، وجهد وتفتيش للوصول إلى المؤمنين، وكذلك فإنّ المؤمنين أيضاً يعمّون على غيرهم، ويتدثرون بثوب الاستخفاء ويتكلفونه خوفا على أنفسهم من بطش قريش.

الفعل تَفَسَّح:

ورد في اللسان: "وفسح له في المجلس يفسح فسحاً وفسوحاً وتفسّح: وسّع له"[50].

وجاء في المفردات: "التفسّح: التوسُّع، ويقال: فسحت مجلسه فتفسّح فيه"[51].

وقد ورد هذا الفعل في القرآن في موضع واحد في قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسّحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم"[52].

روى الطبريُّ في مناسبة نزول هذه الآية عن قتادة قال: "كانوا يتنافسون في مجلس النبيّ، فقيل لهم: إذا قيل لكم تَفَسَّحوا في المجالس فافسحوا... قال ابن زيد هذا مجلس رسول، كان الرجل يأتي فيقول: افسحوا لي رحمكم الله، فيضنّ كل أحد منهم بقربه من رسول الله،، فأمرهم بذلك"[53].

وقيل هو المجلس من مجالس القتال، وهي مراكز الغزاة، " قيل كان الرجل يأتي الصّف فيقول: تفسّحوا، فيأبون لحرصهم على الشهادة"[54].

وجاء في التحرير والتنوير: "والتفسّح: التوسع، وهو تفعّل من فسح له... ومادة التفعّل هنا للتكلف، أي، يكلّف أن يجعل فسحة في المكان وذلك بمضايقة الجلاس"[55].

ومعنى التكلف في الفعل تفسَّح ظاهر؛ لأنّ هذه مجالس النبيّ عليه السلام، والصحابة كانوا يحرصون على هذه المجالس، وأبعد ما يكونون عن التفريط بها، فإذا جاء وافد وأراد أن يجلس بينهم ضنّ كُلٌّ بمجلسه وبقي فيه، ويظل أخوهم واقفاً ينتظر، فكان النبي يأمرهم أن يوسعوا لهذا الأخ، وذلك بمزايلة أماكنهم، فكان في ذلك مبعث ضيق في قلوبهم، وألم في نفوسهم، فكانوا يبرحون هذه المجالس وهم منطوون على هذا الضيق والألم، فجاء الفعل "تفسّحوا" ليعبر عن

دخيلة نفوسهم وما يختلج فيها من شعور بالإكراه على هذا الفعل، وأنهم يحملون أنفسهم عليه حملاً ويدفعونها إليه دفعاً.

وكذلك إذا كان الأمر بالتفسّح في مقاعد القتال ومصافّه، فهم يتسابقون إلى الصفوف الأُوَل فيه، وتتطلع نفوسهم لنيل أعلى درجات الثواب عند الله سبحانه، والتعرض للفوز بالشهادة في سبيله، فكان في أمرهم بالتوسيع لغيرهم فيه إبعاد لهم عن مواطن الثواب والتسبب في الشهادة، فكانوا ينفذون هذا الفعل ونفوسهم كارهة، وقلوبهم صادّة لا تريد أن تبرح الأمكنة التي سبقت إليها.

الفعل تَرَبَّص:

جاء في معجم العين: "التربّص: الانتظار بالشيء يوماً"[56].

وجاء في معجم مقاييس اللغة: "ربص: الراء والباء والصاد أصل واحد يدل على الانتظار"[57]. وجاء في اللسان: "التربُّص: الانتظار، ربص بالشيء ربصاً، وتربَّص به: انتظر به خيراً أو شراً، وتربص به الشيء كذلك. الليث: التربُّص بالشيء: أن تنتظر به يوماً ما، والفعل تربّصت به"[58].

وجاء في التحرير والتنوير "التربُّص: التوقف عن عمل يراد عمله، والتريُّث انتظاراً لما قد يغني عن العمل أو انتظاراً لفرصة تمكن من إيقاعه على أتقن كيفية"[59].

يظهر مما سبق أن أغلب اللغويين والمفسرين لا يفرقون بين الأصل والزيادة في الفعل "تربَّص"، ويعدون معناهما واحداً، وهو الانتظار، وهذا لا يمكن إذ الزيادة في المبنى تقابلها زيادة في المعنى، والأغلب في تفعّل أنّها للتكلف، وهو حاصل هنا ومتحقق، فيكون معنى "ربص" هو الانتظار والمكث والتريُّث، ومعنى تربّص: تكلّف الانتظار والترقّب والتلبّث، وحمل النفس عليه لأمر ما.

ورد الفعل"تربّص" في القرآن في ستة عشرة موضعاً، وكُلّها تفيد حمل النفس على الانتظار وإرغامها عليه انتظاراً لما سيحصل. وسأتناول موضعين فقط، ينسحبان على بقية المواضيع:-

1) قال تعالى: "والمطلقات يتربَّصن بأنفسهن ثلاثة قروء"[60].

قال الزمخشريّ: "قلت: في ذكر الأنفس تهييج لهنّ على التربّص وزيادة بعث، لأنّ فيه ما يستنكفن منه فيحملهنّ على أن يتربصن، وذلك أنّ أنفس النساء طوامح إلى الرجال، فأُمِرْن أن يقمعن أنفسهنّ ويَغْلِبْنها على الطموح ويجبرنها على التربص"[61].

إذن يطلب الله سبحانه في هذا النص من المطلقات أن يحملن أنفسهن على التريُّث ويكلفنها التلبّث حتى انتهاء أمد العدة؛ لأنّهنّ بطبيعتهنّ مَيّالات إلى التزوّج بعد طلاقهنّ، وعليهنّ الانتظار عسى أن يوفقن في زواج آخر، جاء في الظلال: "ولكنّ التعبير القرآني يلقي ظلالاً أخرى بجانب ذلك المعنى الذّهني، إنه يلقي ظلال الرغبة الدافعة إلى استئناف حياة زوجية جديدة رغبة الأنفس التي يدعوهنّ إلى التربُّص والإمساك بزمامها مع التحفّز والتوفّز الذي يصاحب صورة التربّص"[62].

وهنا ملحظ جدير بالذكر، وهو أنّ صفة التربُّص جاءت في القرآن في أمرين، الأول فيما يتعلق بشؤون المرأة ودعوتها إلى التربّص سواء في عدة الطلاق أو الوفاة أو الإيلاء، والثاني في العلاقة بين المؤمنين وغيرهم من منافقين ومشركين، فكان يطلب من كل طرف أن يتربص بالطرف الآخر ليرى مصيره، فكان يطلب من المؤمنين أن يكلفوا أنفسهم التريُّث والانتظار ليروا نهاية أعدائهم، وكذلك يُطلب من غير المؤمنين أن يتربّصوا ليشاهدوا بأنفسهم إعزاز الله المؤمنين، وإذلال أعدائهم.

2) قال تعالى: "الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم، وإن كان للمشركين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين"[63].

هذه الآية تعبر عن حالة نفسية كان يتصف بها المنافقون، وهي أَنّهم كانوا يكلفون أنفسهم ويُلجئونها إلى الانتظار والتريّث، وعدم البوح بمكنون صدورهم الحاقدة ريثما تنجلي المعركة بين المؤمنين وعدوهم، فإن كانت الجولة للمؤمنين قالوا نحن معكم، وإنْ كانت للكافرين قالوا ألم نحمكم ونمنعكم من المؤمنين؟ وجاء التعبير بصيغة تفعّل الدالة على الإكراه والإرغام، لأنّ هذا يعاكس طبيعة النفوس المستعصية، فالأصل في الإنسان السّويّ أن يتساوق ظاهره مع باطنه ويصرح عن هوى نفسه، ومَيل عاطفته، وقناعة فكره، ويحدد مع أيّ الفريقين يقف، أمّا هؤلاء فقد دفعهم خور قلوبهم، واضطراب نفوسهم، وضعف إيمانهم إلى هذا السلوك المنحرف الذي يلزم النفس بالانحدار إلى بوتقة الاختفاء، وجدار الانزواء إلى حين ظهور نتيجة المعركة، ثم تقرر موقفها بناءً على ذلك.

الفعل تبرأ:

جاء في معجم مقاييس اللغة: "فأمّا الباء والراء والهمزة فأصلان إليها ترجع فروع الأبواب، أحدهما الخلق... والأصل الآخر التباعد من الشيء ومزايلته"[64].

وجاء في اللسان: "برئ: إذا تخلّص، وبرئ إذا تنزّه، والبريء المتفصّي من القبائح، المتنجّي عن الباطل والكذب، البعيد عن التهم، التقيّ القلب عن الشرك"[65].

وجاء في البحر المحيط: "تأتي تفعّل بمعنى المجرد كتعدّى الشيء وعداه، أي جاوزه، وتَلَبَّثَ ولبث، وتَبَرَّأ وبرئ، وتعجّب وعجب"[66].

وجاء في تفسير التحرير والتنوير: "والتبرُّؤ: تكلُّف البراءة، وهي التباعد من الأمر الذي من شأن قربه أن يكون مضراً"[67].

مما سبق يتضح أن البراءة تعني مفارقة الشيء والتخلص منه، والانعتاق مما فيه من التصاق وارتباط وثيق، وأغلب ما يكون ذلك في المعنويات، كالبراءة من الكذب أو الإثم أو الدَّين، وتأتي قليلاً في الماديات كقوله تعالى: "وأبرئ الأكمه والأبرص"[68].

وقد جاء هذا الجذر في القرآن في ثلاث صيغ: أبرأ، بَرْأ، تَبَرَّأ.

أمّا الصيغتان الأوليان فقد استعملتا في أمور مادية، أو في البراءة من بعض الذنوب، قال تعالى: "وأُبرئ الأكمه والأبرص"، وقال: "ولا تكونوا كالذين آذوا موسى فَبَرّأه الله مما قالوا"[69]، وقال: "وما أُبَرّئ نفسي إنّ النفس لآمارة بالسوء"[70].

أمّا الفعل تبرّأ" فقد استعمل في سياقات أفخم، ومواقف أضخم، إذ ورد في خضم المخاصمة والمجادلة بين الخصوم يوم القيامة، خاصة بين الأتباع والمتبوعين، والضالين والمضلين، وهو موقف رهيب، وسيرد فيه الأتباع النار بسبب غواية المتبوعين لهم في الدنيا.

الموضع الأول: "ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون... وما هم بخارجين من النار"[71].

فهذا مشهد جليل من مشاهد يوم القيامة يبرُز فيه الأتباع أمام حقيقة موقفهم، وقد تخلّى عنهم المتبوعون، وأسلموهم لمصيرهم وألقوا عليهم تبعة ضلالهم. والفعل "تَبَرّأ" يشير إلى المبالغة والمحاولة والتصميم الذي يصطنعه المتبوعون في التخلي عن أتباعهم وإنكار أن يكونوا سبب ضلالهم، وأنّهم هم من سعى للضلال.

وكذلك يغشى الغمُّ والحزن الأتباع فيتمنّون لو أنّ لهم كَرّة أخرى إلى الدنيا ليكافئوا المتبوعين بمثل فعلتهم فيبالغوا في البراءة منهم، ويكلفوا أنفسهم أشدّ التكلّف، ويلزموها أعظم إلزام في مزايلة المتبوعين ومفارقتهم في ضلالهم.

الموضع الثاني: "وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلّا عن موعدة وعدها إيّاه فلمّا تبيّن له أنّه عدوّ لله تَبَرّأ منه"[72]. فإبراهيم عليه السلام معروف بمواقفه الثابتة من قومه وأبيه، وبراءته من معبودات قومه: "وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنّني براء مما تعبدون"[73]. وقال: "وأعتزلكم وما تدعون من دون الله"[74].

وكذلك عُرف بتحطيمه الأصنام، ومجادلته قومه في شأن هذه المعبودات، وأنّها لا تضر ولا تنفع، ودعوته ربّه أن يجنبه وبنيه عبادتها: "واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام"[75]. كل هذا جعل إبراهيم عليه السلام خالصاً في توحيده، مفاصلاً للمشركين، نابذاً لمعبوداتهم في غير مواربة أو مجاملة: "قد بدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده"[76]. ولذا كانت صيغة "تفعّل" أنسب في هذا السياق وفي تجلية دعوة إبراهيم، فيكون إبراهيم عليه السلام ألزم نفسه، وقسرها على الخلوص والتفصي، والانبتات من علاقته بأبيه، لأنه تبيّن له شرك أبيه وكفره ومعاداته دعوة التوحيد التي دعا إليها إبراهيم.

الفعل تخلّى:

جاء في معجم مقاييس اللغة: "الخاء واللام والحرف المعتل أصل واحد يدل على تفري الشيء من الشيء،، يقال: هو خلو من كذا، إذا كان عروا منه، وخلت الدار وغيرها تخلو"[77].

وجاء في اللسان: "التخلي: التفرغ، ويقال: تخلّى للعبادة وهو تفعّل من الخلو، والمراد التبرّؤ من الشرك وعقد القلب على الإيمان... وفي حديث معاوية القشيري: قلت يا رسول الله: ما آيات الإسلام؟ قال أن تقول أسلمت لله وتَخَلَّيت"[78].

ورد الفعل تخلّى في القرآن الكريم في موضع واحد من سورة الانشقاق في قوله تعالى: "وألقت ما فيها وتخلت"[79].

قال الإمام القرطبي توضيحاً لمعنى هذا الفعل:" وألقت ما فيها وتخلّتْ: أي أخرجت أمواتها، وتخلت عنهم، وقال ابن جبير: ألقت ما في بطنها من الموتى، وتخلت مما على ظهرها من الأحياء. وقيل: ألقت ما في بطنها من كنوزها ومعادنها، وتخلّت منها، أي خلا جوفها فليس في بطنها شيء، وذلك يؤذن بعظم الأمر، كما تلقي الحامل ما في بطنها عند الشدة، وقيل: تخلّت مما على ظهرها من جبالها وبحارها، وقيل: ألقت ما استودعت وتخلّت ما استحفظت؛ لأن الله استحفظها عباده أحياءً وأمواتاً، واستحفظها بلاده مزارعة وأقواتاً"[80].

وجاء في البحر المحيط: "وجاء تخلّت: أي تكلّف أقصى جهدها في الخلو"[81].

وجاء في التحرير والتنوير: "تخلّتْ: أي أخرجت ما في بطنها، فلم يبق منه شيء؛ لأن فعل تخلّى يدل على قوة الخلوّ عن شيء لما في مادة التفعّل من الدلالة على تكلّف الفعل كما يقال: تَكَرّم فلان إذا بالغ في الكرم"[82].

يظهر مما سبق أن الفعل "تخلّى" يحمل في طياته معنى الشدة والعنف وقهر الذات وإجبارها على إخراج ما في بطنها، كالحامل التي ثقلت بما في بطنها، وضاقت بحمله، فهي تضغط على نفسها وتكرهها لإخراج ما في بطنها؛ لأنّه لن يكون بعد شدة التخلي إلا تمام الراحة والخفة.

والأرض سخرها الله سبحانه لتكون حافظة للإنسان ولما يحتاجه على وجه البسيطة، فجعل الله في باطنها كلّ ما يحتاج الإنسان وما يحفظ عليه حياته، فقد حفظ في باطنها الأقوات والمعادن والمياه، والنظام الذي يحفظ عليها توازنها من حيث ترتيب الطبقات ومقادير المكونات، وصلاحية كل طبقة لوظيفتها، ثم جعل في باطنها البشر بعد موتهم، ثم حفظ فوقها البحار والجبال والمياه والهواء والنبات والحيوان، وكلّ ذلك له أهمية في حفظ توازن الحياة على سطح الأرض. وعندما تنتهي وظيفة الأرض بوقوع القيامة يُؤذَن للأرض بأن تضع هذا العبء عن كاهلها، وأنّ عملها المضني قد توقف، فتسارع بقوة للتخلص من كلّ تبعات وظيفتها بإلقاء كل ما في باطنها وعلى ظهرها مما ناءت به طوال فترة تسخيرها. وصيغة تفعّل هي التي أضاءت لنا كل هذه المعاني.

الفعل تكبّر:

جاء في اللسان: "قال الزجاج: ومعنى يتكبرون: أي أنّهم يرون أنّهم أفضل الخلق، وأنّ لهم من الحقّ ما ليس لغيرهم، وهذه الصفة لا تكون إلا لله خاصة؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي له القدرة والفضل الذي ليس لأحد مثله، وذلك الذي يستحق أنْ يقال له المتكبّر، وليس لأحد أن يتكبّر لأن الناس في الحقوق سواء"[83].

وجاء في المفردات: "والتكبّر يقال على وجهين، أحدهما: أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن غيره، وعلى هذا وصف الله سبحانه بالتكبّر، قال: "العزيز الجبار المتكبّر" والثاني: أنْ يكن متكلفاً لذلك متشبعاً، وذلك في وصف عامة الناس نحو قوله: فبئس مثوى المتكبّرين"[84].

وجاء في التحرير والتنوير: "والتكبّر: الاتصاف بالكبر، وقد صيغ له الصيغة الدالة على التكلف"[85].

يظهر مما سبق أنّ صفة التكبّر فيها معنى التكلّف والتشبّع لإلصاق النفس بما ليس فيها، فالمتكبّر يدعي العظمة ويلبسها نفسه ادعاءً وكذباً، وهي في واقع الحال منبثقة عنه. ويؤيد هذا المعنى كون فعل التكبّر لا يوجد إلا خارج النفس، ولا يتحقق إلا في واقع ظاهر، وذلك لأنّ هذا الفعل لا يمكن الاطلاع عليه أو تحقيقه إلا في واقع معين؛ لأنّ النفس تقسر صاحبها على تكلّف الكبر والاتصاف به، وهذا لا يكون إلا إذا فعله المتكبر واقعاً، لذا لا يمكن أنْ نقول عن شخص إنه متكبّر دون أن يظهر ذلك في حركاته وعباراته، أو نظراته وإشاراته، وتحريك أطرافه ورأسه إيماءً إلى العظمة والأنفة والمكانة التي يتبوّؤها المتكبّر. وقد ورد هذا الفعل في القرآن في موضعين:

الأول: "قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها"[86]. جاء في الآية: تتكبر فيها، أي لا ينبغي أن يكون تكبرك واقعاً في الجنّة، ولا نسمح لك بذلك؛ لأنها ليست مكاناً للذنوب والمعاصي، ولكن انزل إلى الأرض، ويمكن أن تظهر خلقك القبيح هناك.

الثاني: قال تعالى: "سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون بغير الحقّ"[87]، قال: يتكبرّون في الأرض، أي إنّ تكبرهم ظاهر وبارز ومحقق في الأرض، ويراه كل ذي عين؛ لأنهم يفتعلونه أمام الناس ويتكلفونه، بخلاف ما هم عليه، حتى يظنّ الناس بهم العظمة والقوة.

الفرق بين الاستكبار والتكبّر.

جاء في اللسان: "والتكبّر والاستكبار، التعظم"[88]. وجاء في البحر المحيط: "الاستكبار والتكبّر: وهو مما جاء فيه استفعل بمعنى تفَعَّل"[89].

وجاء في التحرير والتنوير: "ومن لطائف العربية أنّ مادة الاتصاف بالكبر لم تجئ معها إلا بصيغة الاستفعال أو التفعّل، إشارة إلى أن صاحب صفة الكبر لا يكون إلا متطلباً الكبر، أو متكلفاً له، وما هو بكبير حقاً"[90].

لا نكاد نجد مما سبق فرقاً عند اللغويين والنحاة بين الاستكبار والتكبّر، إلا ما قاله صاحب التحرير والتنوير بأنّ الاستكبار للطلب، والتكبّر للتكلف.

وقد أورد صاحب التحرير والتنوير معنى آخر أوضح وأدقّ لمعنى استكبر فقال: "الاستكبار: شدّة الكبر، والسين والتاء فيه للعدّ، أي عدّ نفسه كبيراً مثل استعظم واستعذب الشارب"[91].

إذن الاستكبار: هو حالة نفسية تقع للمتصف بها، إذ هو يرى في نفسه العظمة والمكانة والمنزلة، ويترتّب على ذلك الامتناع عن طاعة الأمر والتعالي على الخلق واستضعافهم، لذا فإنّ الاستكبار ينتج عنه التكبّر. وليس بالضرورة أنْ يكون المتكبّر مستكبراً، لأن المتكبّر قد يكلّف نفسه العظمة والمنزلة دون أن يعتقد أنّ ذلك فيه حقيقة. وإذا ألقينا نظرة سريعة على السياقات التي ورد فيها الفعل استكبر، فستجد أنه يتضمّن شعوراً بالعظمة واعتداداً بالنفس، يمنع صاحبه من قبول الحقّ أو إنفاذه، وهذا واضح في قوله تعالى، "أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون"[92]، وقوله تعالى: "ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته"[93]، وقوله تعالى: "وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً"[94]، وقوله تعالى: "لوّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون"[95].

الفعل ترقّب:

ورد في معجم العين: "رقَبْت الشيء رِقبةً وررقباناً أي انتظرت. وقوله تعالى: "ولم ترقب قولي": أي لم تنتظر، والترقب: تنظّر الشيء وتوقعه"[96].

وجاء في معجم مقاييس اللغة: "الراء والقاف والباء أصل واحد مطّرد يدل على انتصاب لمراعاة شيء"[97].

وجاء في اللسان: "والترقب: تنظّر وتوقع شيء"[98].

وقد جاء الفعل ترقّب في القرآن في موضعين: الأول يصور حالة موسى بعد قتل الرجل القبطي، وخوفه بطش فرعون به، قال تعالى: "فأصبح في المدينة خائفاً يترقّب"[99]، والثاني يصور حالة موسى عند خروجه من مصر مطارداً من فرعون ورجاله، قال تعالى: "فخرج منها خائفاً يترقب"[100].

جاء في تفسير الطبري: " يترقب: يترقب الأخبار: أي ينتظر ما الذي يتحدث به الناس مما هم صانعون في أمره وأمر قتله"[101].

وقال أيضاً:" يترقب: يقول: ينتظر الطلب أن يدركه فيأخذه"[102].

وجاء في تفسير الرازي: "أما قوله: فخرج منها خائفاً يترقب، أي خائفاً على نفسه من آل فرعون ينتظر هل يلحقه طلب فيؤخذ"[103].

وجاء في المفردات: "وترقّب: احترز راقباً"[104].

وجاء في الظلال: "ولفظ يترقّب يصور هيئة القلق الذي يتلفت ويتوجّس، ويتوقع الشر في كلّ لحظة... والتعبير يجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ"[105].

وفي الواقع إنّ هذه الكلمة بصيغتها "تفعّل"، وبجرسها تصور الهواجس والمخاوف التي تضطرب في نفس موسى عليه السلام، ومن ثمّ انعكاسها على صورته الظاهرة، وهيئته البادية. فهي تصور نفساً استحوذ عليها الخوف من بطش عدوّها، فهي متكلّفة في حذرها، مفرطة في تلفتها، مبالغة في توجّسها، فكل حركة، أو همسة، أو نظرة، أو صيحة تخيل إلى موسى أنه المأخوذ بها، فيدفعه ذلك إلى الهروب، أو الاختفاء، والابتعاد عن مصدر الخوف، ظنّاً منه أنه هو المراد، وأنه هو المقصود.

والتعبير بالفعل المضارع يلحّ بصورة الترقب والتخوف على أذهاننا، ويطيل أمدها، ويبين ضخامتها وأثرها البالغ على نفس موسى وهو يطيل الترقب والتخفي.

الفعل تَنَفَّس:

جاء في اللسان "والنَّفَس: خروج الريح من الأنف والفم.

والجمع أنفاس، والتَّنَفُّس: استمداد النَّفس، وتنفّس الصبح إذا تبلّج وامتدّ حتى يصير نهاراً بيّناً، وتنفَّس النهار وغيره: امتدّ وطال"[106].

وورد الفعل تنفّس في القرآن في موضع واحد في قوله تعالى: "والصبح إذا تنفّس"[107].

وجاء في بيان معنى هذا الفعل: "والتنفس: خروج النّسيم من الجوف، واستعير للصبح، ومعناه امتداده حتى يصير نهاراً واضحاً"[108].

وجاء في تفسير التحرير والتنوير: "والتّنفس: حقيقته خروج النفس من الحيوان، استعير لظهور الضياء مع بقايا الظلام على تشبيه خروج الضياء بخروج النفس، على طريقة الاستعارة المصرحة، أو لأنه إذا بدا الصباح أقبل معه نسيم، فجعل ذلك كالتّنفس به على طريقة المكنية بتشبيه الصبح بذي نفس مع تشبيه النّسيم بالأنفاس"[109].

وجاء في الظلال: "والصبح حيٌّ يتنفّس، أنفاسه النور والحياة والحركة التي تدبّ في كلّ حيّ"[110].

فبالإضافة إلى ما في هذه الاستعارة من روعة من خلال التصوير والتشخيص حتى يُخَيَّل إلينا أنّ الصبح كائن حيّ جعل يستيقظ، وبدأت الحياة تسري في كيانه من جديد، وغدا النشاط يدب فيه فأخذ يتنسم الأنفاس ويخرجها طارحاً عن صدره نوماً ثقيلاً وليلاً طويلاً. فبالإضافة إلى هذا المعنى الرائع، هناك معنى آخر لا يقل عنه روعة، يزيد الصورة وضوحاً، والمعنى جلاءً، وهو صيغة "تفعّل" في الفعل "تنفّس"، فهذه الصيغة تصور حالة الخلود إلى الراحة، واللصوق بالفراش، ومدافعة نداء النشاط والهمة والنهوض، فيقوم المستيقظ بإكراه نفسه على النشاط، وإلزامها ترك الفراش، وقسرها على مغالبة ميلها نحو الراحة، وإيثارها النوم والاستمرار فيه.

وهذه الصيغة تصور هذا الصراع بين داعي الراحة والنوم وداعي النشاط والهمّة والعمل، فينتصر داعي النشاط على داعي النوم والكسل من خلال الشروع في التنفّس لإزالة غواشي النوم وأثقاله، ثم الانتقال إلى الحركة والعمل وهو من أهم خصائص الكائن الحيّ.

الفعل تشقّق:

جاء في تاج العروس: "وتشققت عصاهم بالبين مثل انشقت إذا تفرّق أمرهم"[111].

وورد الفعل تشقق في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، والناظر في استعمال هذا الفعل في مواضعه هذه يلحظ أنّ في إيقاع هذا الفعل مدافعة واستكراها وإلزاما، وأن هناك ما دفع إلى حدوثه، وأثّر في وقوعه، وهذه المواضع هي:-

1- "ويوم تشقق السماء بالغمام ونُزّل الملائكة تنزيلاً"[112]. ففعل التشقق هنا يحدث بسبب من الغمام؛ إذ هو أدى بالسماء إلى التشقق والتصدّع، قال الزمخشري: "والمعنى: أن السماء تنفسخ بغمام يخرج منها"[113].

وجاء في تفسير البيضاوي: "بالغمام بسبب طلوع الغمام منها"[114]. وجاء في البحر المحيط: "والباءُ باءُ الحال، أي: مُتَغَيِّمة، أو باء السبب، أي بسبب طلوع الغمام"[115].

2- "يوم تشقَّق الأرض عنهم سراعاً""[116].

تشقّق الأرض هنا ناتج عن اندفاع الناس، وخروجهم إلى الحساب بعد أن تسري في أجسادهم الحياة وتُرَدّ إليهم الأرواح.

3- "وإنّ منها لما يشّقّق فيخرج منه الماء"[117].

يحصل تشقّق الأرض هنا بسبب اندفاع الماء المخزون في باطن الأرض، إذ إنه يضغط على الصخور المحيطة حتى يخرج مشكلاً أنهاراً وينابيع وغدرانا.

والفعل في الآية الأخيرة يختلف عن الفعلين السالفين بطروء الإدغام عليه مثل الفعل: ازّمّل، ازّيّن، ادّثّر.

والإدغام زاد الفعل ثقلاً، وهو الأنسب للمعنى هنا، لأنّ الحديث فيها عن أمور الدنيا المشاهدة المحسوسة التي تعتمد على الأسباب والمسبَّبات، فالأرض في صلابتها، ويُبْسها، وقسوة جلاميدها لا تَتَشقَّق إلا إذا أثّرت فيها قوة شديدة لا تقلّ عن قسوة الصخور والحجارة فتجعلها تتصَدَّع وينتشر منها الماء.

أما الآيتان الأوليان فتتحدثان عن أهوال يوم القيامة الذي تتغيّر فيه المقاييس، وتتَبدّل القوانين، وكل شيء يحدث فيه بغير القوانين المعتادة، لأنّ هذه القوانين لن تقدر على هذه الأهوال، فكأنّ هذه الأحداث العظيمة حاصلة بقوة الله المباشرة.

فالغمام وحده كما هو معلوم لا يمكن أن يشقق السماء، وكذلك الناس في قبورهم لا يستطيعون الخروج بقدرتهم الذاتية، لذا كان هذا الفعلان أخفّ في صياغتهما من الفعل السابق الذي حصل فيه التشقق بقوة الماء الذاتية.

وكان في الإتيان بالفعلين الأوّلين خفيفين إشارة إلى سهولة الحدث وسرعته أمام قدرته سبحانه، فهي أحداث تحدث بيسر وطواعية بقدرته سبحانه.

الفرق بين تشقق وانشَقّ:

عند تأمل الفعل انشق في كل أمثلته لا نجد ذكراً لسبب دَفَع إلى حصول الفعل، وأثر في وقوعه، وهذه المثل هي:

"اقتربت الساعة وانشق القمر"[118]، "فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان"[119]، "وانشقت السماء فهي يومئذ واهية[120]، "وإذا السماء انشقت"[121]، فهذه الأفعال تحدث دون مُقَدِّمات، فكأن انشقاقها يحصل تلقائياً.

وفي آية واحدة استعمل الفعل انشق، وله سبب معنوي، وهو دعوى الكفار اتخاذ الله ولداً، فقال تعالى: "وقالوا اتخذ الرحمن ولداً، تكاد السماوات يتفطّرن منه وتنشقّ الأرض"[122]، لأن الفعل انشقّ هنا أبلغ، إذ إنّ الفعل انشق يدل على مطاوعة واستجابة منه، وهو يحصل في داخل الشيء، فعندما قال: تنشقُّ الأرض، فهذا يشير إلى انزعاج وتأثير داخلي على الأرض، من هول القول، حتى كادت تنفلق وتنشق لقبح هذا القول، كما الإنسان حين يعتريه الغضب، أو يصيبه همّ يكاد منه يصدع قلبه.

أما التشقق فهو أهون، وقد يكون فقط على سطح الأرض لا يزايله كما في الآيات السابقة.

ولذا عبّر في شأن السماء بقوله يتفطرن، والتفطّر أعظم من التشقق، إذ هو تشقق وزيادة بانفصال الأجزاء وبتعثرها.

وبالإضافة إلى ذلك، فهناك فرق آخر بين انشق وتتشقق، فإنّ تكرير التاء والقاف في تتشقق يوحي بتكرير فعل التشقق وبوقوع تصدعات وتشققات متعددة، وهذا واضح من سياق الآيات التي ورد فيها الفعل.

أمّا الفعل انشَقّ فيدلّ على شقّ واحد يفصل بين جزأي المنشق، والدليل على ذلك أنّ القمر حين انشقاقه كان كالفلقتين، كما ثبت في حديث أنس: "فأراهم القمر شقين"[123].

وكذلك انشقاق السماء، فكأنه يقسمها إلى جزأين، والله أعلم.

أهم نتائج البحث:

1) لصيغة تفعّل دلالات متعدّدة أكثرها ورودا دلالة التكلف.
2) كثير من المعاني التي أوردها النحاة لمعاني تفعّل في القرآن الكريم بحاجة إلى إعادة نظر.

3) كثير من الدلالات التي فسرت بها معاني تفعّل في القرآن الكريم نابية عن السياق، ولا تناسب الغرض الذي وردت فيه.

4) كانت صيغة تفعّل الواردة في القرآن تحمل إضافة لمعنى التكلف تصويراً لحالات شعورية، وإشارة لملاحظ نفسية، ودلالات عميقة تتناسب والسياق الذي وردت فيه، والمقصد الشرعي الذي ترمي إليه.

The Significance of the Paradigm (TAFA"ALA) in the Holy Quran

Ibrahem Abu Ghalia, *Arabic Language Department, University of Jerusalem, Jerusalem, Palestine.*

Abstract

This study aims at analyzing the significance of the paradigm (tafa"la) in the Holy Quran on a grammatical conjugational basis. This is achieved through criticizing significances that have been erroneously associated with this paradigm. The study is applied on ten verbs from the Holy Quran conjugated according to this paradigm. The researcher has examined classically controversial examples that specialists are known to have had conflicting views about. Several of these specialists are even known to have advocated that these examples have identical meanings, and others still have ventured to associate unrealistic meanings to them. The researcher has contextually examined these controversial significances in relation to their evident settings. The researcher then gave preponderance to the meanings with closer significances. The study has concluded that one of the most evident meanings of this paradigm is affectation. Moreover, he has concluded that utmost precision in meaning and aesthetic values could be attributed to the use of this paradigm.

Verbs examined are as follows: (tabattala) meaning to live in chastity, (tazayyala) meaning…, (tarabbasa) meaning to ambuscade, (tabarra'a) meaning to repudiate, (takhalla) meaning to relinquish, (takabbara) meaning to become supercilious, (taraqqaba) meaning to anticipate, (tanaffasa) meaning to dawn, (tashaqqaqa) meaning to chap, (tafassaha) meaning to become ample.

الهوامش

1. أوزان الأفعال ومعانيها، شلاش، هاشم طه، (1971م)، ط1، مطبعة النجف الأشرف، ص94.
2. الكتاب، سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، (1402هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة. ج2، ص71.
3. أدب الكاتب، ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، (1402)، تحقيق: محمد الدالي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص466.
4. الأصول في النحو، ابن السراج، أبو بكر محمد بن سهل، (1420)، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج3، ص132.
5. لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين، (1414هـ)، ط3، دار صادر، بيروت، مادة غزل.
6. تاج العروس من جواهر القاموس، الزّبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، (د.ت)، دار الهداية، مادة شبع.
7. تاج العروس، مادة مرأ.
8. المرجع السابق، مادة جلد.
9. المرجع السابق، مادة صنع.
10. الكتاب، ج4، ص73.
11. يُنظر: شرح التسهيل، ناظر الجيش، محب الدين محمد بن يوسف بن أحمد، (1428هـ)، تحقيق: علي محمد فاخر وآخرين، ط1، دار السلام، القاهر، ج8، ص3751، دروس في التصريف، عبد الحميد، محمد محيي الدين، 1411هـ، د،ط، المكتبة العصرية، بيروت.
12. شرح شافية ابن الحاجب، الأستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن، (د،ت)، تحقيق: محمد محيي الدين وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت،، ج1، ص109.
13. شرح شافية ابن الحاجب، اليزدي، الخضر، تحقيق: حسن أحمد العثمان، ط1، مؤسسة الريان، (1429هـ)، بيروت، ج1، ص223.
14. معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، أبو الحسين أحمد، (1969) تحقيق: عبد السلام هارون، (د،ط)، دار الفكر، بيروت، مادة بوب.
15. المرجع السابق، مادة خبب.
16. لسان العرب مادة خدم.
17. لسان العرب، باب أخو.
18. لسان العرب، مادة أمم.

19. لسان العرب، مادة حلى.
20. معجم مقاييس اللغة، مادة مول.
21. لسان العرب مادة أبل.
22. لسان العرب مادة خول
23. تاج العروس، مادة جند
24. تاج العروس، مادة حفر.
25. تاج العروس، مادة لحف.
26. تاج العروس، مادة حصن.
27. تاج العروس، مادة خلو.
28. تاج العروس، مادة شكو.
29. ارتشاف الضرب من لسان العرب، أبو حيان، محمد بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي، الأندلسي، (1418هـ)، تحقيق: رجب عثمان محمد، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة ج1، ص172، ويُنظر: الحملاوي، أحمد، شذا العرف، 1402ه، ط16، وعضيمة، محمد عبد الخالق، 1426ه، د،ط، دار الكتب الحديثة، القاهرة، وقباوة، فخر الدين، 2012م، ط1، مكتبة لبنان، بيروت.
30. سورة الأعراف، آية 146.
31. لسان العرب، مادة نسم.
32. معجم مقاييس اللغة، مادة وسم.
33. المخصص، ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، (1417)، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت،(د،ط)، المكتبة التوفيقية، القاهرة ج1، ص257.
34. لسان العرب، مادة حري.
35. تاج العروس، مادة كسب.
36. تاج العروس، مادة لمس، وتاج العروس: مادة قرب.
37. شرح التسهيل، ابن مالك، جمال الدين، محمد بن عبد الله بن عبد الله، (1430هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا وطارق السيد، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، ج3، ص308.
38. شرح التسهيل، ناظر الجيش، ج8، ص3753، ويُنظر: الترادف في صيغ الأفعال بين الصرفيين والمعاجم، الدسوقي، إبراهيم، 2001م، د،ط، مكتبة الإنجلو المصرية، ص29.
39. لسان العرب، مادة بتل.
40. القاموس المحيط، الفيروز أبادي، أبو الطاهر محمد بن يعقوب، (1426هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت مادة بتل.

41. معجم مقاييس اللغة، مادة بتل.
42. معاني القرآن، الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، (د.ت)، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، ط1، دار المصرية للتأليف، مصر، ج3، ص.198
43. التحرير والتنوير، ابن عاشور التونسي، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، (1984)، الدار التونسية للنشر، تونس، ج9، ص265.
44. سورة المزمل، آيه 8.
45. لسان العرب، مادة زيل.
46. تاج العروس، مادة زيل.
47. التحرير والتنوير، ج6، ص192.
48. تاج العروس، مادة زيل.
49. سورة الفتح، آية 25.
50. اللسان، مادة فسح.
51. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، أبو القاسم بن محمد، (1412هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط1، دار القلم، بيروت، مادة فسح.
52. سورة المجادلة، آية 11.
53. تفسير الطبري، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن غالب الآملي، (1422هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، دار هجر، ج3، ص243.
54. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، (1407هـ)، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت ج4، ص492.
55. التحرير والتنوير، ج28، ص36.
56. كتاب العين، الخليل بن أحمد، أبو عبد الرحمن بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، مادة ربص.
57. معجم مقاييس اللغة، مادة ربص.
58. اللسان، مادة ربص.
59. تفسير القرطبي، ج3، ص 102.
60. سورة البقرة، آية 218.
61. الكشاف، ج1، ص268.
62. في ظلال القرآن، قطب، سيد، (1412هـ)، ط17، دار الشروق، بيروت، ج1، ص243.
63. سورة النساء، آية 141.

64. معجم مقاييس اللغة، مادة برأ.
65. اللسان، مادة برأ.
66. تفسير البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي، (1420 هـ)، تحقيق: صدقي محمد 0جميل، (د،ط)، دار الفكر، بيروت، ج2، ص108.
67. التحرير والتنوير، ج2، ص90.
68. سورة آل عمران، آية 49.
69. سورة الأحزاب، آية 69.
70. سورة يوسف، آية 53.
71. سورة البقرة، آية 165.
72. سورة التوبة، آية 114.
73. سورة الزخرف، آية 26.
74. سورة مريم، آية 49.
75. سورة إبراهيم، آية 35.
76. سورة الممتحنة، آية 4.
77. معجم مقاييس اللغة، مادة خلو.
78. لسان العرب، مادة خلو.
79. سورة الانشقاق، آية 4.
80. تفسير القرطبي، القرطبي، شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري، (1384هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم إطفيش، ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة ج19، ص269.
81. تفسير البحر المحيط، ج10، ص432.
82. التحرير والتنوير، ج30، ص220.
83. لسان العرب، مادة كبر.
84. المفردات في غريب القرآن، مادة كبر.
85. التحرير التنوير، ج9، ص103.
86. سورة الأعراف، آية13.
87. سورة الأعراف، آية 146.
88. لسان العرب مادة كبر.

89. تفسير البحر المحيط، ج1، ص244.
90. التحرير والتنوير، ج1، ص425.
91. المصدر السابق، ج1، ص424.
92. سورة البقرة، آية 87.
93. سورة الأنبياء، آية 19.
94. سورة لقمان، آية 7.
95. سورة المنافقون، آية 5.
96. كتاب العين،، مادة رقب.
97. معجم مقاييس اللغة، ج2، ص427.
98. لسان العرب، مادة رقب.
99. سورة القصص، آية 18.
100. سورة القصص، آية 21.
101. تفسير الطبري، ج19، ص542.
102. المصدر السابق، ج19، ص 542.
103. تفسير الرازي، الرازي، فخر الدين، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين التيمي،(1420)هـ، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت ج24، ص587.
104. المفردات في غريب القرآن، ص 362.
105. في ظلال القرآن، ج5، ص2683.
106. لسان العرب، مادة نفس.
107. سورة التكوير، آية 18.
108. تفسير البحر المحيط، ج10، ص423.
109. التحرير والتنوير، ج3، ص 154.
110. في ظلال القرآن، ج6، ص 3842.
111. تاج العروس، مادة شقق.
112. سورة الفرقان، آية 25.
113. الكشاف، ج3،ص275.
114. تفسير البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، (1418هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج4، ص122.

115. تفسير البحر المحيط، ج8، ص100.
116. سورة ق، آية 44.
117. سورة البقرة، آية 74.
118. سورة القمر، آية 1.
119. سورة الرحمن آية 37.
120. سورة الحاقة آية 16.
121. سورة الانشقاق، آية 1.
122. سورة مريم، آية 90.
123. الجامع المسند الصحيح، البخاري، محمد بن اسماعيل، كتاب مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر،(1407هـ)، تحقيق: مصطفى ديب البغا، ط 3، دار ابن كثير، بيروت، ج3، ص1404.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

الأستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن، **شرح شافية ابن الحاجب**، (د.ت)، تحقيق: محمد محيي الدين وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت.

البخاري، محمد بن إسماعيل، **الجامع المسند الصحيح**، (1407ه) تحقيق: مصطفى ديب البغا، ط 3، دار ابن كثير، بيروت.

البيضاوي، ناصر الدين، أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، (1418هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الحملاوي، أحمد، **شذا العرف**، (1402ه) ط16.

أبو حيان، محمد بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي، **الأندلسي: ارتشاف الضرب من لسان العرب** (1418هـ)، تحقيق: رجب عثمان محمد، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة.

أبو حيان، محمد بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي، **الأندلسي: البحر المحيط**، (1420 هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، (د،ط)، دار الفكر، بيروت.

الخليل بن أحمد، أبو عبد الرحمن بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (د.ت)، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

الدسوقي، إبراهيم، **الترادف في صيغ الأفعال بين الصرفيين والمعاجم**، (2001م)، (د.ط)، مكتبة الأنجلو المصرية.

الرازي، فخر الدين، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين التيمي، **مفاتيح الغيب**، (1420)هـ، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (1420هـ): **تفسير الراغب الأصفهاني**، تحقيق: عادل بن علي الشدي، ط1، دار الوطن، الرياض.

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد (1420هـ): **المفردات في غريب القرآن**، (1412هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط1، دار القلم، بيروت.

الزّبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسين، **تاج العروس من جواهر القاموس**، (د.ت)، دار الهداية.

الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، (1407)هـ، ط3، دار الكتاب العربي، بيروت.

ابن السّراج، أبو بكر محمد بن سهل، **الأصول في النحو** (1420هـ)، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت.

أبو السعود العمادي، محمد بن محمد بن مصطفى، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم** (د.ت)، (د.ط)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، **الكتاب**، (1402هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة.

ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعل، (1417)، **المخصص**، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ط)، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

شلاش، هاشم طه، **أوزان الفعل ومعانيها**، (1971م)، ط1، مطبعة النجف الأشرف.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن غالب الآملي، **تفسير الطبري**، (1422هـ)، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، دار هجر.

ابن عاشور التونسي، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، (1984)، الدار التونسية للنشر، تونس.

عبد الحميد، محمد محيي الدين، **دروس في التصريف**، (1411هـ)، (د.ط)، المكتبة العصرية، بيروت.

عضيمة، محمد عبد الخالق، **دراسات لأسلوب القرآن الكريم**، (1425هـ)، (د.ط)، دار الحديث، القاهرة. المغني في تصريف الأفعال، (1426هـ)، (د.ط)، دار الحديث، القاهرة.

ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب، (1422هـ)، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط1، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ابن فارس، أبو الحسين أحمد، **معجم مقاييس اللغة**، (1969) تحقيق: عبد السلام هارون، (د.ط)، دار الفكر، بيروت.

الفراء، أبو زكريا يحيى بن زياد، **معاني القرآن**، (د.ت)، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، ط1، دار المصرية للتأليف، مصر.

الفيروز أبادي، أبو الطاهر محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، (1426هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت.

قباوة، فخر الدين، (2012م) ط1، مكتبة لبنان، بيروت.

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، **أدب الكاتب**، (1402هـ)، تحقيق: محمد الدالي، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت.

القرطبي، شمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري، **تفسير القرطبي**، (1384هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم إطفيش، ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة.

قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، (1412هـ)، ط17، دار الشروق، بيروت.

ابن مالك، جمال الدين محمد بن عبد الله بن عبد الله، **شرح التسهيل**، (1430هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا وطارق السيد، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين، **لسان العرب**، (1414هـ)، ط3، دار صادر، بيروت.

ناظر الجيش، محبّ الدين محمد بن يوسف بن أحمد، **شرح التسهيل**، (1428هـ)، تحقيق: علي محمد فاخر وآخرين، ط1، دار السلام، القاهرة.

اليزدي، الخضر، **شرح شافية ابن الحاجب**، (1429ه)، تحقيق: حسن أحمد العثمان، ط1، مؤسسة الريان، بيروت.